أثر اقتصاديات البحر المتوسط
في تكوين مجتمع مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ

إعداد:

الدكتور فرحات محمد بكار هاتف:

أستاذ التاريخ الإسلامي بريد إلكتروني:

والحضارة الإسلامية

كلية الآداب – جامعة بنغازي

الملخص

تتناول هذه الدراسة موضوع أثر اقتصاديات البحر المتوسط في تكوين مجتمع مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ، وتنقسم هذه الدراسة إلى خمسة مباحث؛ المبحث الأول بعنوان: "الجوانب الجغرافية والتاريخية"، والمبحث الثاني المعنون: "الحياة العمرانية واقتصاد البحر المتوسط في مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ"، أما المبحث الثالث فهو الموسوم بـ: "أثر الاقتصاد البحر المتوسط في تراتيب المهن والأنشطة الاقتصادية للمجتمع في مدينة تونس"، والمبحث الرابع بعنوان: "التعليم في مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ"، أما المبحث الخامس والأخير فهو المعنون بـ: "أثر اقتصاديات البحر المتوسط على علاقات الدم والنسب".

Summary

The influence of Mediterranean economies on shaping Tunisian society in the Hafsid period

This research examines how Mediterranean economies influenced the development of Tunisian society in the Hafsid period. This research is organized into five parts: the first part is titled: “Geographical and Historical Aspects,” the second part is titled: “Urban Life and the Mediterranean Economy in Tunis during the Hafsid period,” the third part is titled: “The Effect of the Mediterranean Economy on Professional Structures and Economic Activities in Tunisian Society,” the fourth part is titled: “Education in Tunis during the Hafsid period,” and the fifth and last part is titled: “The Influence of the Mediterranean Economy on Family and Kinship Ties.”

المقدمة

تؤدي المدن دوراً مهماً في الحياة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية لكل دولة وخاصةً منها الدول الإسلامي، لأن الحضارة الإسلامية هي حضارة مدن ومدنية، والمجتمع الحضاري المدني يُعتبر ركيزة السلطة وأداة الدفاع عنها ضد المناهضين في الداخل والأعداء في الخارج.

والمدينة تمثل تجمع كبير للسكان، والحاجات، والإمكانيات، وهي أكثر الأنماط الحضارية تعقيدا، فالنمط الحضاري الرعوي، والنمط الحضاري الريفي أقل تعقيد من النمط الحضاري للمدينة.

كما أن المدن الداخلية أقل تعقيد من المدن الساحلية، فهناك مدن داخلية ذات تحضر مدني (تجاري، صناعي، زراعي) فيها نوع من التحضر والرخاء، إلا أن منها مدن ذات عصبية قبلية، وأخرى متشابكة الانتماءات العرقية والأسرية، وهناك مدن ساحلية ذات تحضر مدني متنوع ذات عصبية قبلية، وأخرى متعددة الأعراق متفككة العصبيات القبلية، وفي المغرب الأدنى أواخر العصور الوسطى وخلال العصر الحفصيَّ تأثرت حياة المدن فيها بالتحولات الاقتصادية للبحر المتوسط، فاتجه الناس للعيش في المدن الساحلية، إلا أن هناك مدن ساحلية تأثرت باقتصاديات البحر المتوسط مالياً، وتجارياً، إلا أنها لم تندمج في تأثير المظاهر الحضارية والاقتصادية المتوسطي، أي مدن ذات عصبية قبلية، أما مدينتين تونس (عاصمة الدولة الحفصيَّة)، ومدينة بجاية فهما فقط من مدن المغرب الأدنى الحفصيَّة الأكثر ارتباطاً بالأنشطة الاقتصادية المتوسطية، واندماج في دائرة التأثيرات الحضارية للاقتصاد المتوسطي، إلا أننا اخترنا موضوع أثر اقتصاديات البحر المتوسط في تكوين مجتمع مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ موضوعاً لهذه الدراسة، أي وقوع مجتمع مدينة تونس تحت تأثير الاقتصاد المتوسطي ماليا، وتجارياً، وحضارياً، مدينة ذات انتماءات عرقية وأسرية، والسبب في اختيارنا لمدينة تونس هو أنها عاصمة الدولة الحفصيَّة، وأكثر مدنها تأثراً باقتصاديات البحر المتوسط تجارياً ومالياً وحضارياً.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

هل المدن الإفريقية الساحلية أكثر ولاء من المدن الداخلية للدولة الحفصيَّة، وأكثر تأثراً باقتصاديات البحر المتوسط من المدن الداخلية، وهل مدينة تونس أكثر ولا للدولة الحفصيَّة من المدن الداخلية والساحلية الأخرى، وأكثرها تأثراً باقتصاديات المتوسط مالياً وتجارياً وحضارياً؟.

المبحث الأول

الجوانب الجغرافية والتاريخية

أولاً: الجانب الجغرافي:

يتكون المغرب العربي الإسلامي من ثلاثة أقسام هي:

1- **قسم المغرب الأقصى:** الممتد من شواطئ المحيط الأطلسي غرباً إلى وادي ملوية وممر تازا شرقاً[1]، منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، حاضرة وعاصمة الدويلة المرينية[*] مدينة فاس.

2- **المغرب الأوسط:** حده الغربي وادي ملوية وممر تازا، ويمتد شرقاً حتى مدينة تاهرت وبجاية[2]، تأسست فيه دويلة بني عبدالواد (الزيانية) منذ النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، حاضرة وعاصمة الدويلة الزيانية مدينة تلمسان.

3- **المغرب الأدنى:** يمتد من مدينتي تاهرت وبجاية غرباً حتى نواحي سرت وبرقة شرقاً، ويضم هذا القسم ثلاثة أقاليم رئيسية، هي:

أ- إقليم الزاب: يسمى أيضاً إقليم قسطنطينة ويضم حالياً (الأجزاء الشرقية من الجزائر)، وأهم مدن هذا الإقليم بجاية وقسطنطينة.

ب- إقليم إفريقية: وهي ما تقابل البلاد التونسية الحالية، تمتد من مدينة بونة (عنابة حالياً) غرباً إلى مدينة قابس شرقاً، وأهم مدنه تونس، والقيروان، والمهدية[3].

ج- إقليم طرابلس: يمتد من مدينة قابس غرباً حتى نواحي سرت وبرقة شرقاً، أهم مدنيه مدينة إطرابلس[4].

ثانياً: الجانب التاريخي:

وقعت هذه الأقاليم الثلاث (قسطنطينة، إفريقية، طرابلس) تحت نفوذ الحفصيِّين منذ أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى أوائل القرن العاشر الهجري/منتصف السادس عشر الميلادي بالنسبة لإقليم طرابلس، وحتى أواخر القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي بالنسبة لإقليمي قسطنطينة وإفريقية حاضرة وعاصمة الدولة الحفصيَّة هي مدينة تونس[5].

الأقاليم الثلاث (قسطنطينة، إفريقية، طرابلس) تسمى قسم المغرب الأدنى، وإقليم إفريقية يتوسط قسم المغرب الأدنى ويمتد غربيه إقليم قسطنطينة، بينما يمتد شرقيه إقليم طرابلس، ويمثل إقليم إفريقية، من الناحية (الجيوسياسية) المركز السياسي والإداري لقسم المغرب الأدنى[6] خلال عصور: الولاة الأمويين ثم الولاة العباسيين[7]، وإمارة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية وهي إمارة الأغالبة[8]، ثم أصبحت مقراً للخلافة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المخالفة لخلافة العباسيين السنية، ثم تحولت إلى منطقة مستقلة عن الفاطميين[9] إدارياً والتبعية السياسية والمذهبية للفاطميين منذ سنة (361هـ/972م) حتى سنة (393هـ/1003م)، وأصبحت منطقة مستقلة عن الفاطميين إدارياً، وسياسياً، واستمرار التبعية المذهبية للدولة الفاطمية منذ سنة (393هـ/1003م) حتى سنة (400هـ/1048م)، وفي هذه السنة (1048م) استقلت إفريقية عن الفاطميين سياسياً، وإدارياً، ومذهبياً.

تمثلت هذه المنطقة السياسية والإدارية في دولة بني زيري في إفريقية وقسطنطينة وطرابلس منذ سنة (361هـ/972م) حتى سنة (393هـ/1003م)، ومنذ سنة (393هـ/1003م) حتى سنة (440هـ/1048م) دولة بني زيري في إقليمي قسطنطينة وإفريقية، وإمارة بني خزرون الزناتية في إقليم طرابلس، وبعودة هذه الكيانات السياسية إلى فرقة أهل السنة والجماعة، والمذهب السني المالكي انفصلوا نهائياً عن الفاطميين، وبذلك تحولت منطقة المغرب الأدنى سياسياً ومذهبياً إلى منطقة مستقلة، غير أن وصول قبائل الهلاليين وما رافقها من قبائل بني سُليم وفزارة وبني ربيعة والمضرية إلى كل من إقليم برقة وأقسام المغرب العام، وما ترتب عليه من سقوط إمارة بني خزرون في إقليم طرابلس واقتصار نفوذ الزيريين في الساحل الشمالي الشرقي لإقليم إفريقية (تونس الحالية)، وانقسام باقي إقليم إفريقية إلى عدة دويلات مستقلة محلية، منها دويلات البربر؛ مثل: (دويلة بني خراسان في مدينة تونس، وبني الرند في مدينة قفصة)، ودويلات العرب البلديين والشاميين والأفارق[**]، مثل: (دويلة بني جامع في مدينة قابس، ودويلة بني الورد في مدينة بنزرت)، كما قامت دويلات هلالية وسُليمية مستقلة في مناطق: (الكاف، والأربس، وزغوان)، ثم دخلت مرحلة الصراع بين الجبهة الإسلامية المتحدة المتكونة من البربر والزيريين، والعرب الشاميين، والبلديين، والهلاليين، والأفارق، والسُليميين، وبين النورمان الصقليين الذين وجهوا غزواتهم إلى أقاليم قسم المغرب الأدنى، في نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري منذ سنة (540هـ/1145م)، حتى تمكن الموحدين من تحرير أقاليم المغرب الأدنى (قسطنطينة، إفريقية، طرابلس) من الاحتلال النورماني وفرض نفوذهم الموحدي عليها، ووضع كل أقسام المغرب العربي الإسلامي العام (الأقصى، الأوسط، الأدنى) تحت سلطة الدولة الموحدية إقليمية واحدة[10]، ثم وقع المغرب الأدنى فريسة محاولات بني غانية وقبائل بني

سُليم للاستقلال به، إلى أن تمكن الأمير أبو زكريا الحفصيَّ، من القضاء على وجود بني غانية الميورقيين، وإخضاع قبائل بني هلال وبني سُليم في المغرب الأدنى والاستقلال به عن الموحدين في مراكش، واستمرت أحداث ثورة بني غانية وانعكاساتها على المغرب الأدنى منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي واستمرار هذه الثورة حتى تم القضاء عليها من قبل الحفصيَّين سنة (623هـ/1226م)، ثم انسلاخ الحفصيَّين عن الموحدين واستقلالهم بالمغرب الأدنى في سنة (625هـ/1228م)، واتخاذ مدينة تونس عاصمةٍ لدولته[11].

بعد أن تمكن الحفصيَّين من بسط سيادتهم على أقاليم المغرب الأدنى الثلاثة: (طرابلس، إفريقية، قسطنطينة)، طرابلس الذي يشمل شمال غرب (الدولة الليبية الحالية)، إفريقية يضم (الجمهورية التونسية الحالية)، وقسطنطينة يشمل (الأجزاء الشرقية من الجمهورية الجزائرية الحالية)[12].

وتحقق الأمن والاستقرار في بلاد المغرب الأدنى بفضل سياسات الحفصيَّين الرشيدة في حكمها[13]، وترتب على هذا الأمن والاستقرار الذي عاشتها المغرب الأدنى في ظل بني حفص أن طرأت عليها تحولات اقتصادية ارتبطت باقتصاديات البحر المتوسط المتمثلة في أنشطة: التجارة البحرية، القرصنة (الغزو البحري)[14]، أدى إلى انتقال أهم المراكز العمرانية نحو ساحل البحر المتوسط[15].

المبحث الثاني
الحياة العمرانية واقتصاد البحر المتوسط
في مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ

ورثت الدولة الحفصيَّة عن الفترات السابقة وضعية متدهورة من حيث تناقص العمران واختلاله، ولقد سجل لنا العديد من الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين زاروا بلاد المغرب الأدنى، خلال أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي صورة قاتمة متشائمة عن العمران فيها[16]، إلا أن الدولة الحفصيَّة عندما فرضت سيادتها السياسية على أقاليم المغرب الأدنى، حدث شيء من النهضة العمرانية دون أن يكون لها نمو وتطور عمراني، بمعنى أنه لم يتم بناء مدن جديدة، بل إعادة عمران المدن الموجودة من بناء مساكن عامة، ومنشآت، وقصور سلطانية جديدة بأحواز هذه المدن[17]، ومن المؤكد أن مدينة تونس قد حدثت فيها نهضة عمرانية، ظاهرة في إعادة إعمار المساكن العامة القديمة وكذلك المنشآت والقصور السلطانية، وبناء مساكن للعامة جديدة، ودور وقصور جديدة للخاصة، ومنشآت وقصور سلطانية جديدة، وبناء المساجد الجديدة، وإحداث التوسعات في المساجد

والجوامع(***) القديمة، كذلك في جامع الزيتونة الأكبر في وسط مدينة تونس التي استفادت كثيراً من موقعها كعاصمة لإقليم إفريقية وبلاد المغرب الأدنى والدولة الحفصيَّة[18].

منذ أواخر العصر الموحدي، وأوائل العصر الحفصيَّ، أخذ الناس في النزوح من دواخل إقليم إفريقية باتجاه مدينة تونس، إلى جانب استقرار الأعداد الكبيرة من المهاجرين الأندلسيين في المغرب بشكل عام، وإقليم إفريقية بشكل خاص، ومدينة تونس بشكل أخص، في تحول عمراني كبير متأثر بالتحول نحو الاقتصاد البحر المتوسط المرتبط بالتجارة البحرية والقرصنة، وبذلك أصبحت مدينة تونس متعددة الجنسيات من العناصر المحلية القادمة من كل أقاليم ومدن المغرب بالأدنى لممارسة أعمال التجارة داخل أسواق مدينة تونس وأحوازها، والتجارة البحرية، وتجارة القوافل، والقرصنة، ومن العناصر الأوروبية المتكونة من الجاليات التجارية الأوروبية من مختلف الجنسيات التابعة للدول والمدن الأوروبية يقيمون في الفنادق والأحياء الخاصة بهم في أحواز مدينة تونس، بالإضافة إلى الأحياء الخاصة بالأندلسيين واليهود.

لقد لازم، عدم التطور والنمو العمراني في أواخر العصر الموحدي وأوائل العصر الحفصيَّ تناقص عدد سكان مدينة تونس، بسبب ثورات وصراعات بني غانية الميورقيين وحلفائهم من زعامات الهلاليين وبني سُليم مع الموحدين والحفصيَّين، أما ما يلي أوائل العصر الحفصيَّ، وبالرغم مما أورده الدولاتلي[19] في كتابه مدينة تونس، عن وجود خصائص تعدد الزوجات والزواج المبكر، والعدد الكبير من أفراد العائلة الواحدة التي انتشرت بين السكان المحليين من البربر، والعرب، والأندلسيين، إلا أن مدينة تونس استمرت تعاني من النمو البطيء للسكان، الذي واكبه نهضة عمرانية المتمثلة في إعادة العمران دون نموه وتطوره، باستثناء أحياء المهاجرين الأندلسيين الجدد من مسلمين ويهود.

وفي هذا الصدد يشير الدولاتلي إلى أن السبب في ضعف النمو الساني في مدينة تونس بصفة خاصة، وأقاليم المغرب الأدنى بصفة عامة، خلال العصر الحفصيَّ، بالرغم من وجود خصائص كثافة النسل والسكان سالفة الذكر، هو كثرة حدوث الجوائح والكوارث والمجاعات[20].

المبحث الثالث

أثر الاقتصاد البحر المتوسط في تراتيب المهن والأنشطة الاقتصادية للمجتمع في مدينة تونس

أولاً: التجارة البحرية:

أصبح قطاع التجارة البحرية في مدينة تونس من أكثر القطاعات والأنشطة الاقتصادية حيويةٍ وازدهاراً في مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ، غير أن هذا القطاع الاقتصادي لم يتطور إلا بفضل

تجار الجاليات الأوروبية، الذين يتبعون البلدان التجارية البحرية الأوروبية، وهي كالآتي: (بيزا، جنوة، البندقية، أمالفي، نابولي، صقلية، مرسيليا، أراغون)، فقد كان تجار هذه البلدان يمتلكان وسائل النقل البحرية ذات التقنيات المتطورة، وكانت هذه الوسائل تظهر في شكل شركات نقل بحرية كبرى تتبع السلطات المحلية لمدن هذه البلدان، تمتلك الشركة الواحدة من عشرين إلى مائة سفينة ذات التقنيات العالية، لذا سيطرت هذه الشركات على نسبة 80% من نقل الواردات والصادرات في مدينة تونس، كما كان إيجارات كل سفينة من سفن هذه الشركات مرتفع، وبذلك يرجع الفضل في تطوير وازدهار التجارة البحرية في مدية تونس إلى تجار الجاليات الأوروبية[21]، وترتب على ازدهار حركة التجارة البحرية في مدينة تونس تطور التجارة البينية (الصادرات والواردات) إلى تنشيط أسواق المدينة المحلية اليومية والأسبوعية، والموسمية، وتوفير فرص العمل لسكان المدينة المحليين، كما تمكن جزء من تجار مدينة تونس المحليين من الانخراط في قطاع التجارة البحرية، وامتلاك العشرات من سفن النقل البحري الأقل من الناحية التقنية، ومن ناحية الإيجارات من السفن الأوروبية، وسيطرت السفن التجارية التونسية المحلية على نسبة 20% من نقل البضائع في عرض البحر، وكانت التجارة البحرية تُشكل أهمية كبيرة للسلطات الحفصيَّة من حيث أنها توفر الإيرادات المالية الكبيرة لهذه السلطات، وتوفر فرص العمل لرعيتهم، ومما يدل على أهمية التجارة البحرية في مدينة تونس أثناء العصر الحفصيَّ، هو أن المنطقة الممتدة ما بين باب البحر وموقع البحيرة تشكل أهم منطقة للحياة والأنشطة الاقتصادية في مدينة تونس؛ حيث تتواجد في هذه المنطقة الميناء التجاري وحي الميناء التجاري للتجار التوانسة المشتغلين بالتجارة البحرية، والأحياء والفنادق التجارية الخاصة بالجاليات التجارية الأوروبية التي تستعمل كمقرات لسكناهم، ومستودعات لتخزين بضائعهم الواردة والصادرة، وقد حققت هذه الفنادق الأرباح الكبيرة للدول الأوروبية وجالياتهم التجارية.

في المقابل لم تكن للتجار التوانسة في الدول الأوروبية مؤسسات على ذمتهم تُسمى فنادق يُقيمون فيها ويُخزنون فيها بضائعهم[22]، وذلك لعدة أسباب، وهي:

1- الكثافة السكانية في الدول الأوروبية، والمدن التجارية الإيطالية أعلى نسبةٍ من الكثافة السكانية في مدينة تونس التي تعاني من ضعف النمو السكاني، وبذلك قوة الاستهلاك في أوروبا أعلى من مدينة تونس.

2- تبعاً لذلك نسبة الصادرات من مدينة إلى أوروبا أكثر نسبةٍ من الواردات الأوروبية إلى مدينة تونس.

لذلك أصبح أعداد التجارة الأوروبيين كبير، وفترات إقامتهم طويلة، وأخذوا ينتظمون في الإقامة بفنادق تجارية، حيث لكل جالية فندق تجاري خاصٍ بها، كما لكل جالية قنصل يتم تعيينه من قبل سلطات دولة الجالية؛ يحافظ على حقوق وتجارات جاليته، ويتولى التنظيم الإداري والمالي للفندق، وهو حلقة الوصل بين سلطات بلاده والسلطات الحفصيَّة.

رغم عدم وجود فنادق خاصة للتجار التوانسة في دول ومدن أوروبا، وقلة الصادرات التونسية إلى أوروبا، فإن هناك العديد من التجار التوانسة الذين أقاموا لفترات طويلة قد تصل إلى العشر سنوات في بعض الدول الأوروبية[23].

ثانياً: القرصنة (الغزو البحري):

إن ظاهرة القرصنة في حوض البحر المتوسط كانت شائعة فيه منذ العصور القديمة، وأخذت تتصاعد في العصور الوسطى الوندالية والبيزنطية، وعندما تحكم العرب المسلمين في سواحل المغرب عند الضفة الجنوبية للبحر المتوسط أنشأوا قواعد عسكرية بحرية وأساطيل بحرية تقوم بالغزو والإغارات على الجزر وشواطئ البلدان الأوروبية في البحر المتوسط مما ترتب عليه ميول توازن القوى في البحر المتوسط لصالح العرب المسلمين، وسيطرة العرب المسلمين على البحر المتوسط والملاحة البحرية، والتجارة البحرية فيه، بالحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ القرن السابع الميلادي، وبالحوضين الأوسط والغربي منذ القرن الثامن الميلادي، واستمر الأمر في صالح المسلمين عبر القرون الثامن، والتاسع، والعاشر للميلاد إلى أن وقع توازن القوى بين المسلمين والأوروبيين المسيحيين في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وأخذت عمليات القرصنة والغزو البحري في حالة اندفاع متبادل بين الطرفين من أفعال وردود أفعال، وتطور إلى شكل تنظيمي[24]، وتحولت إلى مؤسسة حقيقية[25]، ومهدت إلى قيام الحروب الصليبية[26] بعد أن مَيَلَ ميزان القوى بعض الشيء إلى البلدان الأوروبية بانتزاعها معظم جزر البحر المتوسط من المسلمين وتفوقها تقنياً في النقل البحري والقوى والسلاح البحري، وسيطرتها شبه المطلقة على التجارة البحرية، واتخاذ الأوروبيين السواحل الأوروبية لشمال البحر المتوسط ومعظم جزر البحر المتوسط قواعد عسكرية للغزوات البحرية والصليبية، وأعمال القرصنة، في المقابل اتخاذ المسلمين سواحل جنوب البحر المتوسط قواعد عسكرية لمواجهة غزوات الأوروبيين البحرية، وتنظيم عمليات القرصنة التي أطلقوا عليها مسمى الجهاد البحري ضد السفن التجارية والشواطئ الأوروبية، وهنا الأمر يحتاج منا إلى دراسة وتمحيص ليتبين لنا أن هناك عمليات غزو بحرية للمسلمين أخذت طابع الجهاد الديني البحري، وهناك عمليات غزو بحري أخذت طابع القرصنة في النهب والسلب والأسر.

هذه الحالة الأخيرة كان حال الدولة الحفصيَّة الذي كان أكبر مدنها وموانئها وقواعدها العسكرية هي مدينة تونس، ويذكر أن الدولة الحفصيَّة كانت تنظم عمليات الغزو البحري في بداية عصرها ذوو طابع ديني أكثر منه نشاط اقتصادي[27]، إلا أن عمليات الغزو البحري في أواخر العصر الحفصيَّ تحولت إلى عمليات اقتصادية قائمة على القرصنة خلال القرنين الخامس عشر – السادس عشر الميلاديين، تُشرف عليه السلطات الحفصيَّة، حيث قامت بتحويله إلى مؤسسة حكومية من خلال تنظيم وهيكلة النشاط القرصني[28]، وكان ذلك بعد أن ضعف نشاط قطاع التجارة البحرية، المترتب عن اكتشاف الأوروبيين إلى العالم الجديد والطرق التجارية البحرية الجديدة، غير طرق البحر المتوسط عبر محيطات الأطلسي والهندي، وكانت مدينة تونس الحفصيَّة وميناؤها البحري تمثل المركز الإداري والمالي الرئيسي للمؤسسة السلطوية والحكومية للغزو البحري ذوو الطابع القرصني الاقتصادي في موانئ بلاد المغرب الأدنى، واعتبر ميناؤي مدينتي تونس وإطرابلس أهم وأكثر موانئ المغرب الأدنى خلال العصر الحفصيَّ تنظيماً وتوجيهاً لأعمال القرصنة المؤسساتية[29].

ثالثاً: الفلاحـــــة:

بالرغم من الدور المهم الذي يؤديه القطاع الفلاحي في تنشيط قطاعي التجارة والصناعة في أسواق تونس، من خلال توفير المنتوجات الفلاحية (الزراعية والثروة الحيوانية) القابلة للتبادل التجاري والتصنيع، إلا أن الفلاحة بشقيها (الزراعي والرعوي) وبتأثير تحولات الاقتصاد البحر المتوسط خلال العصر الحفصيَّ أصبح يُشكل قطاعاً ثانوياً بالنسبة لسكان مدينة تونس وذلك نتيجة للعوامل الآتية، وهي:

1- انخفاض أسعار المنتوجات الفلاحية في أسواق المدينة تبعاً للسببين التاليين، وهما:

- ضعف النمو السكاني مما ترتب عنه تدني مستوى الاستهلاك وبذلك انخفاض القوة الشرائية.
- تدني جودة المنتجات الفلاحية في ضواحي مدينة تونس أمام جودة المنتجات الزراعية لمدينة تلمسان الزيانية، ومدينة فاس المرينية، لذا يركز الأوروبيين على استيراد المنتجات التلمسانية والفاسية أكثر من مدينة تونس[30].

2- عدم الاستغلال المنظم والمواصل لقطاع الفلاحة في ضواحي مدينة تونس، وذلك لعدم اهتمام السلطات الحفصيَّة بهذا القطاع الذي لا يوفر فرص العمل والمداخيل الكبرى مثل قطاع التجارة البحرية[31].

3- **كثرة الضرائب من قبل السلطات الحفصيَّة على الفلاحين** أدى إلى تدني مداخيل الفلاحين وبذا تدني المستويات المعيشية.

4- **تخلف تقنيات الإنتاج الفلاحي**، مما ترتب عنه عدم التوسع في الاستصلاح الزراعي وتجويد الاستزراع، وأيضاً عدم تجويد وزيادة منتوجات الثروة الحيوانية[32].

5- **شعور ممتهنين الفلاحة للمذلة**، لتدني مداخيلهم ومعيشتهم، وتخلف تقنياتهم، وإثقال كاهلهم بالضرائب، وبتحولهم إلى شبه أقنان (عبيد الأرض) بامتلاك أراضيهم المستصلحة للسلطات الحفصيَّة، والأراضي الرعوية للزعماء الهلاليين والسُليميين، ودفعهم للأجور، ومناصفة الإنتاج والعشور، والأثلاث للسلطات الحفصيَّة والزعماء الهلاليين والسُليميين[30].

رابعاً: ترتيب المهن الوظيفية والحرف والصناعات:

كان للتحولات الاقتصادية التي أحدثها اقتصاديات البحر المتوسط الأثر الكبير في وقوع متغيرات اجتماعية في مجتمع مدينة تونس الحفصيَّة، وكانت أهم هذه المتغيرات هو انقسام المجتمع التونسي إلى عناصر وفئات مجتمعية ممتهنة إلى مهن وظيفية وحرف، وصناعات رفيعة، وإلى مهن وظيفية متوسطة، وحرف وصناعات متدنية، وهذا الانقسام المهني والحرفي ترتب عنه تمايز اجتماعي نتج عنه انقسام المجتمع التونسي إلى طبقات متفاوتة.

تعتبر حرف التجارة البحرية، في المستوى الأول من السلم الحرفي الاجتماعي، وتتمثل هذه الحرف في تجار التجارة البحرية من ملاك السفن لنقل البضائع ومن معهم من حرف مساعدة على ظهور السفن من قبطان، ورياس يقودون هذه السفن، وأيضاً مرشدين وأدلاء هذه السفن، وخبراء التبادل التجاري التابع للتجارة البحرية الذين يسيرون عمليات البيع والشراء للبضائع، وعمليات الاقتراض وإبرام عقود الشراكة التجارية بين التجار التوانسة والتجار الأوروبيين.

أما المهن الوظيفية التي تأتي في أعلى السُلم المهني الوظيفي الاجتماعي فهي: القضأة، وأصحاب الخطط والدواوين الحكومية (مدير الجمرك، صاحب عادات السلطان، الكاتب الأعظم، قائد الخيل، قائد القصر السلطاني)[35]، ولاية الأشغال، ولاية الخراج[36]، المزاور (مقدم قبائل الموحدين)[37]، بواب القصبة (مركز المدينة)[38].

أما الصناعات التي تعتبر من الصناعات الرفيعة والتي تنتشر في دكاكين صناعاتها والتسويق لها في مركز المدينة بالقرب من جامع الزيتونة الأعظم، وهذه الصناعات هي: (صناعة المنسوجات الحريرية، وصناعة المعادن الثمينة، وصناعة الورق والوراقة، وتجليد الكتب، وصناعة العطورات،

وصناعة الشمع، وصياغة الذهب، وترصيع المنابر وتزيين السقوف، وغزل السجائد، وصناعة الحصائر)[39].

والحرف البحرية المتوسطية المستويات، فهي: (بناء السفن والمراكب، كذلك صيانة وتسيير المراكب والسفن، وأجناد الغزو البحري لأغراض عسكرية جهادية، وعمليات القرصنة)[40]، والحرف المتوسطة المستويات في السلم الاجتماعي، هي: (الحرف التجارية المحلية الداخلية من أصحاب الدكاكين والحوانيت، وأصحاب المهن التجارية المحلية الوسطاء في المبادلات التجارية بأسواق المدينة من الدلالين والسماسرة)، كذلك من الحرف المتوسطة: التوليد، والكتاب، والطب[41]، إلى جانب الصناعات المتوسطة من غزل ونسج القطن والكتان[42].

تأتي في أدنى السُلم الاجتماعي من الحرف المتدنية: (الحائك، والحجام، والكناس، والزبال الذي يكنس تحت الخيل، والسقاء الذي يبيع الماء بأزقة وشوارع المدينة، والحطاب الذي يجمع الحطب ويبيعه، والمغنيات، ومزينات النساء)[43]، والصناعات المتدنية، وهي البعيدة عن مركز المدينة والمنتشرة في أحوازها من: (الصناعات الجلدية، وصباغة الجلود، والنجارة، والحدادة، وصباغة وغزل ونسج الأصواف، وصباغة القطن والكتان)[44].

أما المهن الوظيفية المتوسطة المستويات في السُلم الاجتماعي تأتي في شخوص: قادة الجند، والأجناد، أصحاب الشرطة، وعناصر الشرطة، وأصحاب الأسواق (المحتسبين)[45]، والخطباء، والأئمة[46]، والمؤذنون، والكتاتيب (محفظين الصبيان للقرآن الكريم)، والمدرسون، وقراء الجوامع[47].

المبحث الرابع

التعليم في مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ

إن التعليم خلال العصور الوسطى في البلدان الإسلامية ليس بتعليم إجباري، يرجع الأمر فيه إلى رغبة الشخص نفسه في التعلم، وليس محدد بسن معين، إلا أنه يخضع إلى شروط التدرج في تلقي التعليم، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد: "... اعلم أن تلقين المتعلمين العلوم إنما يكون مقيداً إذا كان التدرج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً..." [48].

كان التعليم الحفصيَّ يمر بمرحلتين ضروريتين: مرحلة تعليم الكتاتيب في المساجد؛ يتعلم فيها التلميذ حفظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة، والحساب، ثم مرحلة الجوامع والمدارس، يتلقى الطالب فيها تعلم الأحاديث والسنن النبوية، وعلوم الفقه والعقائد، وأصول الدين والشرائع، والأحكام الإسلامية، ومدارسة قوانين ومسائل العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية[49].

والطالب بشكل عام يحفظ القرآن ويتعلم القراءة والكتابة قصد تأهيله لمواصلة تكوينه بأكثر تعمق وتأصيل في أروقة كبار العلماء والمشائخ في الجوامع والمدارس.

ساد التعليم في مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ الكتاتيب في المساجد، ثم الانتقال إلى المدارس[50]، وظاهرة المدارس كان أول ظهور لها في المشرق الإسلامي في عصور السلاجقة والزنكيين والأيوبيين، كان الغرض منه مواجهة مذاهب فرقة الشيعة وتقويضها وتكوين موظفين للدولة[51]، وبعد أن قامت الدولة الحفصيَّة في المغرب الأدنى، أسست هذه الدولة المدارس التي كانت تهدف من وراء تأسيسها إلى المحافظة على الدعوة الموحدية ومذهب الموحدين والاتجاهات الفكرية الظاهرية[52]، وقد ازداد عدد المدارس بمدينة تونس إلى نحو 16 مدرسة في نهاية العصر الحفصيَّ[53].

غير أن سيطرة المذهب المالكي على الحياة العامة وعلى التعليم بصفة خاصة، دفعت السلطات الحفصيَّة إلى الخضوع للدمج الأيديولوجي بين المذهبين الموحدي والمالكي، التي أصبحت فيه خلال أوائل وأواسط العصر الحفصيَّ المذهبين متشابهين من حيث المحتوى والسند[54]، ومع مرور الزمن تحولت هذه المدارس في أواخر العصر الحفصيَّ بفضل كبار علماء وفقهاء المالكية إلى مراكز إشعاع للإيديولوجية المذهبية المالكية[55]، في مدينة تونس، غير أن هذه المدارس فرضت إيديولوجية مالكية جامدة منغلقة قائمة على دراسة المسائل الفقهية والفكرية من خلال شروح ورسائل مختصرة وتخليها عن الاجتهاد والقياس، واقتصارها على الفتاوى والاجتهادات السالفة، أي أنهم دخلوا في دائرة مفرغة تعبر أحسن تعبير عن بوادر انزلاق الحضارة العربية الإسلامية في منحدر الانحطاط[56].

وهنا نرى، أن قطاع التعليم في مدينة تونس خلال العصر الحفصيَّ تأثر كثيراً بتحولات الاقتصاديات البحر المتوسط، فقد تمكن بعض التونسيين من الانخراط في قطاع التجارة البحرية الدولية الذي يسيطر عليه بشكل شبه مطلق التجار الأوروبيين، وما رافق هذا القطاع من توفير فرص العمل المتعددة من المشاركة في إعداد عقود البيع والشراء، والتبادلات التجارية، وخبراء التداول النقدي، وتداول الصكوك والسفاتج[****]، وقبطان ورياس، وعمال تسيير السفن، وعمال بناء وصيان السفن، إلى جانب توفر فرص العمل في الأسواق المحلية من تجار محليين، ومهن وسطاء التجارات المحلية من السماسرة والدلالين، وحرفيين، وصُناع لتنشيط الأسواق، وتحولت الدولة الحفصيَّة ومركزها السياسي والإداري مدينة تونس إلى مجتمع مدني برجوازي يمارس أفراده الأنشطة الاقتصادية الصناعية والتجارية، وهذا المجتمع يحتاج إلى جهاز حكومي يتضمن أعداد من الموظفين لتسيير هذه الدولة التجارية والمدنية خاصة وأن مركز هذه الدولة مدينة تونس، الذي تحول أفراد مجتمعها إلى عناصر

تنخرط في سُلم التدرج التعليمي من المرحلة المبتدئة في كتاتيب المساجد، والمرحلة المتوسطة في المدارس، والمرحلة العليا في جامع الزيتون، من أجل إتمام هذه المراحل التعليمية والوصول بعد ذلك إلى الحصول على الوظائف العليا في الجهاز الحكومي، وبذلك التعلم لغرض الوظائف لا لغرض التعلم والإبداع، كما أن الانخراط في التعليم بالمدارس التونسية يمكن الطلبة والأساتذة والمشائخ من ممارسة التجارة المحلية في دكاكين الأحباس، وعن طريق المنح والعطايا التي تعطيها لهم الدولة، أي أن الطلبة يدرسون المختصرات والشروح المقتضبة دون التعمق في الفروع، والعلوم، والفنون، ومتون، وأمهات كتب هذه الفروع، والعلوم، والفنون، وقد تفطن بعض العلماء لهذا الخطر في تلك الفترة، فقد انتقد محمد المقري المتوفي سنة (759هـ/1358م) وتلميذه ابن خلدون قلة اعتماد الاجتهاد والنقل من المختصرات الغريبة أربابها ونسبوا ظواهر ما فيها إلى أمهات الكتب[57]، وفي نفس الصدد يقول ابن خلدون: "ما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التواليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم ... وأن الكثير من المتأخرين ذهبوا إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائلها وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة..."[58].

المبحث الخامس

أثر اقتصاديات البحر المتوسط على علاقات الدم والنسب

تحت تأثير اقتصاديات البحر المتوسط، اندمجت مدينة تونس في دائرة المؤثرات الحضارية والاجتماعية المتوسطية، وأصبحت جزء من هذه الدائرة الحارية المتوسطية[59]، وتحولت إلى مدينة بحرية ومدنية ذات تجمعات مستقلة بعضها عن بعض، عالمية الأنشطة الاقتصادية يتعاطى سكانها التجارة البحرية والمحلية ويليها الصناعة، وابتعدت عن مظاهر الحياة والحضارة الريفية والرعوية[60]، وتكونت المدينة من الطوائف العرقية الآتية: (القبائل الموحدية، الأشراف، البربر، العرب، الأندلسيون، النصارى، اليهود) ونتيجة لتأثيرات اقتصاد البحر المتوسط، أصبحت كل طائفة عرقية تتمتع بنوع من الاستقلالية الذاتية في تسيير شؤونها، لأن الاقتصاد البحر المتوسطي لا يمكن أن يعتمد على العصبية العرقية، فعلى الرغم من اعتماد الحفصيَّين في بداية عصرهم وخلال قيام دولتهم على عصبية القبائل الموحدية[61]، (هنتاتة، هرغة، هيلانة)[****]، وكان لها الريادة السياسية والفكرية والاجتماعية، وكان يرأسهم المزور (مقدم قبائل الموحدين)[62]، إلا أن السلطات الحفصيَّة وتحت تأثير الاقتصاديات البحر المتوسطية اضطرت الدولة الحفصيَّة إلى إيجاد نوع من التوازنات الاجتماعية والسياسية بين هذه الجماعات العرقية بما فيها جماعتي اليهود والنصارى، وتحقيق هذه التوازنات حتى بين جماعة قبائل

الموحدين وباقي الجماعات الأخرى بالرغم من محاولات السلطات الحفصيَّة المحافظة على رائدة العصبية الموحدية من التلاشي، إلا أن عصبية الموحدين وتحت تأثير اقتصاديات البحر المتوسط فقدت رائدتها السياسية والفكرية والاجتماعية، اضطرت السلطات الحفصيَّة في ظل هذه الظروف إلى انتهاج سياسة التوازن العصبوي العرقي[63].

كما كان للاقتصاد البحر المتوسط أثره الكبير في تشكيل طبيعة المجتمع في مدينة تونس بعيداً عن عصبيات علاقات الدم والقرابة واللحمات (القبلية)[64]، فنجد المدن الساحلية المستقلة عن المؤثرات الحضارية الناتجة عن اقتصاد البحر المتوسط، والمدن الداخلية، العصبيات القبلية متأصلة فيها، ففي مدن المهدية، القيروان، وقابس، وقفصة، وزغوان تشكل العصبيات القبلية لبني هلال وبني سُليم مجتمعات هذه المدن[65]، وتسمى هذه المدن ببلداتي المشيخات[66]، حيث القبيلة هي أساس الهيكل السياسي والاجتماعي[67]، أما في مدينة تونس فقد فرضت التحولات الاقتصادية للبحر المتوسط مظاهر مدنية على مجتمع المدينة، ومدينة تونس عند إنشائها سنة (81هـ/701م) على يد القائد العربي الإسلامي **حسان بن النعمان الغساني** أحد قادة الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب تدرجت المدينة في التأثر باقتصاد البحر المتوسط ودائرة مظاهره الحضارية حتى بلغت أوج تأثرها به خلال العصر الحفصيَّ، حيث أخذ مجتمع مدينة تونس الحفصيَّة يتجه نحو تحطيم مفهوم القبيلة والعائلة الكبيرة الممتدة، وهذا لا يعني غياب العصبية بالمدينة، غلا أن العصبية العرقية، أي الطوائف العرقية المختلفة أقوى في أدوارها الاجتماعية والسياسية، من أدوار العلاقات الدموية ولحمة القرابة (التنظيمات القبلية) تكوينات القبائل موجودة لكن الانتماءات العرقية أكثر أهمية، لذلك نجد الانتساب داخل عصبيات الجماعات العرقية إما يكون إلى القبائل أو إلى الأصول البلدانية، أو إلى الصنائع[68].

الخاتمة

بالرغم من انحصار العمران في مدينة تونس الحفصيَّة في إعادة الإعمار دون التطور الإعماري، إلا أنها كانت وجهة استقرار السكان المحليين والمهاجرين الأندلسيين، والتجار الأوروبيين، مما أدى إلى التوع العرقي بها وترتب عن تأثر مدينة تونس الحفصيَّة باقتصاديات البحر المتوسط معيشياً إلى انقسام الحرف والمهن والوظائف إلى مستويات عليا، ومتوسطة، ومتدنية، مما نتج عنه التكوين الطبقي لمجمع مدينة تونس الحفصيَّة، من خلال انقسام المجتمع التونسي إلى طبقات متفاوتة ذات تمايز اجتماعي.

ومن مؤثرات الاقتصاد المتوسطي، أن أصبح التجار التوانسة أقل قدرة على تكوين رؤوس الأموال عن التجار الأجانب، بسبب تفوق التجارة البنية، والقوة الشرائية، وتقنيات النقل البحري والإنتاج في أوروبا عن مدينة تونس، كما أن مدينة تونس الحفصيَّة تمكنت من الاستفادة من إسهامات التنوع العرقي إنتاجياً وحضارياً، كما أدى النظام التعليمي في مدينة تونس الحفصيَّة إلى انتشار وهيمنة المذهب المالكي على الحياة الدينية واليومية، كما فرضت التحولات الاقتصادية المتوسطية على مدينة تونس الحفصيَّة واقع اجتماعي تتلاشى فيه العصبيات القبلية وتتكون فيه علاقات فردية ومصلحية.

الهوامش

1- سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، د.ت)، ص18.

* - الدويلة المرينية: تعرضت وحدة الدولة الإقليمية الموحدية التي قامت في أقسام (المغرب الأقصى، المغرب الأوسط، المغرب الأدنى)، بالإضافة إلى الأندلس (542-668هـ/1147-1269م) إلى التفكك وكان ذلك عندما انفصل الحفصيَّون في المغرب الأدنى عن الدولة الموحدية سنة (625هـ/1228م)، وهم أبناء عمومتهم، ويحملون نفس الأفكار الدينية الموجودة لدى الموحدين، استقل أبو زكريا يحيى الحفصيَّ (625-647هـ/1228-1249م) بأقاليم المغرب الأدنى مستغلاً إعلان الخليفة الموحدي المأمون (624-629هـ/1226-1231م) نبذه للدعوة الموحدية وتكذيب المهدي سنة 627هـ/1230م)، حيث كون هؤلاء الحفصيَّين دولة جديدة انفصلت عن دولة الموحدين، وادعت أنها تحافظ على الدعوة الموحدية التي لم يعد لها سند شعبي في أقسام المغرب.

وفي نفس الوقت ظهرت قوى سياسية أخرى، استغلت ظروف ضعف دولة الموحدين لتستقل هي الأخرى بما تحت يدها من مناطق نفوذ، فظهر بنو عبد الواد (الزيانيون) في المغرب الأوسط فاستولوا على تلمسان وجعلوها عاصمة لدولتهم الناشئة ولكنهم لم يتعنقوا فكر الموحدين وإنما نبذوا هذه الأفكار حباً في مذهب الإمام مالك.

أما المغرب الأقصى فظهرت فيه قوة جديدة إليه من المغرب الأوسط، وهي قوة القبائل المرينية الزناتية التي دخلت إلى المغرب الأقصى في سنة (610هـ/1213م) بعد هزيمة العقاب، ونصب المرينيون أنفسهم في بلاد المغرب الأقصى سنة (668هـ/1269م) حكاماً عليه لحفظ الأمن وضبط الأمور بعد أن عجز الموحدون تماماً في المحافظة على الأمن في دولتهم، وكان ذلك مدعاة إلى حب الناس للمرينيين والانضمام إليهم، واستمر حكم الموحدين بالأندلس كولاية تابعة لهم في المغرب حتى سنة (635هـ/1237م)، حيث ضعفت دولة قوات الموحدين أمام هجمات الممالك الإسبانية، وسقطت أهم الحواضر والثغور الأندلسية بيد الإسبان، لذا رأى أهل الأندلس أن لابد لهم من القيام بعمل دفاعي يحفظ لهم ما بقي من بلدهم، ولهذا أظهرت زعامات محلية أندلسية منها زعامة أبي عبدالله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر (635-671هـ/1237-1272م)، فقامت مملكة غرناطة على أنقاض دولة الموحدين في الأندلس (635-897هـ/1237-1492م).

2- السيد عبدالعزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مرجع سابق، ص18.

3- سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، د.ت)، ص41؛ كذلك عبدالحميد، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، منشأة المعارف العامة (الإسكندرية، 1992م)، ج1،ص67.

4- السيد عبدالعزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مرجع سابق، ص40؛ كذلك: شعيرة، محمد عبدالهادي: ليبيا الاسم ومدلولاته التاريخية، مجلة كلية الآداب والتربية، منشورات جامعة بنغازي (بنغازي، 1958م)، ص10.

5- برانشفيك، روبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصيَّ من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي – ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1988م)، ج1، ص50-51.

6- مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار مطابع المستقبل (القاهرة، 1980م)، ص19.

7- برانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصيَّ، مرجع سابق، ج1، ص30.

8- ابن الخطيب، أبو عبدالله لسان الدين محمد بن عبدالله: شرح رقم الحلل في نظم الدول – تحقيق: عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة (دمشق، 1990م)، ص131.

9- برانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصيَّ، مرجع سابق، ج1، ص32، 36-40، 41-44، 45، 50-52.

**- أ – العرب البلديين: وهم أخلاف الجند العرب المسلمين الفاتحين، ويمثلون العرب المحليين، يعيشون في جماعات متماسكة في المدن وضواحيها، وفي رباطات والقصور المنتشرة في المناطق الساحلية، وقد تحالفوا مع الجماعات الزناتية، التي أصبحت القوى السياسية الحاكمة في الغرب الأدنى، المغرب الأوسط، والمغرب الأقصى منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر الميلاديين.

ب- العرب الأفارق: وهم أخلاف جند ورجال الحكومة المركزية للدولة الأموية (العرب الشاميين)، والجند، ورجال الحكومة المركزية للدولة العباسية (العرب التميميين والخراسانيين)، اللذان بانضمامهما لبعضهما البعض، وانضمام جماعات من أهل البربر شكلوا عنصر العرب الأفارق الذين تواجدوا في المغرب الأدنى في مدن إقليم الزاب: (قسطنطينة، طبنة، المسيلة)، ومدينة إطرابلس، وكانت أقوى عناصرهم في مدينة القيروان، ومدينة تونس = مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص66.

10- قرضاب، أسماء علي عمر أحمد: التجارة بإفريقية في العهد الأغلبي (184-296هـ/800-909م)، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، (طرابلس، 2010م)، ص28.

11- برانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصيَّ، مرجع سابق، ص32، 36-40، 41-44، 45، 50-52.

12- أسماء قرضاب: التجارة بإفريقية في العهد الأغلبي، مرجع سابق، ص28.

13- البرغوثي، عبداللطيف محمود: تاريخ ليبيا الإسلامي (من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني)، منشورات الجامعة الليبية ودار صادر (بيروت، 1972م)، ص195.

14- X. De Planhol, *Les fondements géographiques de l'Islam*, Flammarion, Paris, 1968, p. 151.

15- G. Marçais, *Urbanisme musulman*, Ve Congrès de la Fédération des Sociétés des Sciences de l'Afrique du Nord, Alger, 1940, p. 20.

16- أبو يحيى، الشاذلي: الرحلة المغربية، مجلة الحوليات التونسية، العدد الرابع (تونس، 1967م)، ص177.

17- برانشفيك: تاريخ إفريقية، مرجع سابق، ج1، ص 366-367.

(***) الجوامع: هي مساجد تنتشر في المدن، تقوم فيها أداء العبادات والصلوات، وتعقد فيها حلقات دراسية للعلوم الدينية، والعلوم الرياضية مثل جامع الزيتونة الأعظم في مدينة تونس، وجامع القرويين الأعظم في مدينة فاس، وجامع طرابلس الأعظم، وتطورت الجوامع حتى صارت جامعات وطنية قائمة بذاتها، أما المساجد المنتشرة في ربوع مدينة تونس الحفصيَّة التي تؤدي فيها الصلوات والعبادات، وتوجد بها الكتاتيب وهي عبارة عن غرف ملاصقة للمساجد يدرس فيها الشيوخ التلاميذ بوسائل تعليمية بسيطة فيحفظون القرآن ويتعلمون مبادئه، وأحكامه مكارم الأخلاق. القابسي، نجاح: المعاهد والمؤسسات التعليمية في المغرب العربي، مجلة كلية التربية، العدد (14)، (بنغازي، 1980م)، ص12-13.

18- X. De Planhol, op. cit., p. 151.

19- الدولاتلي: مدينة تونس في العهد الحفصيَّ، د.ن، (تونس، 1981م)، ص93.

20- المرجع نفسه، ص93.

21- برانشفيك: تاريخ إفريقية، مرجع سابق، ج2، ص178.

22- Du Fourcq, *Commerce du Maghreb médiéval*, Actes du Ier Congrès d'Histoire et de Civilisation du Maghreb, t. I, p. 50, 55, 58, 180, 181, 510.

23- برانشفيك: تاريخ إفريقية، مرجع سابق، ج2، ص178.

24- روسي، إتوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م – ترجمة: خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب (د.م، 1991م)، ص158.

25- X. De Planhol, *Les fondements géographiques de l'Islam*, p. 151.

26- روسي: ليبيا منذ الفتح العربي، مرجع سابق، ص158.

27- الغبريني، أبو العباس أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية – تحقيق: رابح بونار، (الجزائر، 1981م)، ص76، ص229.

28- مخطوطة تاريخ عروج وترجمة أخيه خير الدين وقدومهما إلى الجزائر، رقم المخطوطة 137754، المكتبة الوطنية، تونس، ص5ظ.

29- روسي: ليبيا منذ الفتح العربي، مرجع سابق، ص159.

30- البرزلي، أبو الفضل أبو القاسم: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا المفتيين والحكام، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 2002م)، ج2، ص48.

31- برانشفيك: تاريخ إفريقية، مرجع سابق، ج2، ص178.

32- Sayous, André-E. *Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII^e^ siècle jusqu'à la fin du XVI^e^*, Paris, 1929, p. 36.

33- برانشفيك: تاريخ إفريقية، مرجع سابق، ج2، ص178.

34- الرجيبي، نزيهة أبو القاسم: الهجرات الأندلسية وأثرها على منطقتي تونس وليبيا في الفترة من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن التاسع عشر الميلادي، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، (طرابلس، 2009م)، ص147، ص150-151.

35- ابن ناجي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى: معالم الإيمان، (تونس، 1920م)، ج4، ص220، 226؛ كذلك الوزان، الحسن ليون الإفريقي: وصف إفريقية – ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1983م)، ج2، ص79-80.

36- ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي التونسي: المقدمة، (بيروت، 1970م)، ج2، ص19.

37- المصدر نفسه، ج2، ص34.

38- الوزان: وصف إفريقيا، المصدر السابق، ج2، ص79.

39- الرصاع، أبو عبدالله محمد الأنصاري: فهرست الرصاع – تحقيق وتعليق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، (تونس، 1967م)، ص16.

40- نزيهة الرجيبي: الهجرات الأندلسية، مرجع سابق، ص147.

41- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ج2، ص316.

42- المصدر نفسه، ج2، ص306، 307، 308، 366.

43- ابن ناجي: معالم الإيمان، مصدر سابق، ج4، ص138؛ كذلك الوزان: وصف إفريقيا: مصدر سابق، ج2، ص76.

44- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ج2، ص306-307، 308، 366.

45- العمري، شهاب الدين يحيى بن فضل الله: وصف إفريقية والأندلس في أواسط القرن الثامن للهجرة – نشر وتعليق: حسن حسني عبدالوهاب، مطبعة النهضة، (تونس، د.ت)، ص18-19.

46- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ج2، ص394.

47- الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المعرب وجامعة المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب – إخراج تحت إشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1981م)، ج7، ص307.

48- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ج3، ص251.

49- كحالة، عمر رضا: دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية (الملاحة – الفتوة، الفروسية – التربية والتعليم – التجارة – البريد – المواصلات البحرية والنهرية)، المطبعة التعاونية، (دمشق، 1973م)، ص78؛ كذلك: القابسي: المعاهد والمؤسسات، مرجع سابق ص12-13.

50- السراج، محمد بن محمد الأندلسي الوزير: الحلل السندسية في الأخبار التونسية – تحقيق: محمد الحبيب الهيلة (تونس، 1970م)، ج1، ص1083.

51- Brunschvig, R. *Quelques remarques historiques sur les médersas de Tunis*, R.T., 6, 1931, p. 261.

52- Brunschvig, R. op. cit., p. 275.

53- الطالبي، محمد: دراسات في تاريخ إفريقية، منشورات الجامعة التونسية، (تونس، 1982م)، ص189.

54- Brunschvig, R. op. cit., p.276-277.

55- Brunschvig, R. op. cit., p.277.

56- ألفراد، بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي – ترجمة: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1981م)، ص413.

57- ابن مريم، أبو عبد الله محمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان – مراجعة: محمد بن أبي شنب، (الجزائر، 1908م)، ص160، 217؛ كذلك السراج: الحلل السندسية، مصدر سابق، ج1، ص613، 619.

(***) الصُّكوك والسَّفاتج: تعتبر من ضمن وسائل الدفع للمعاملات المالية الضخمة المأمونة من الضياع خفيفة الحمل، بعيدة عن متناول اللصوص؛ والسفاتج مفردها السُّفْتَجَة، وتعني (البوليصة)، و(الحوالة)، وحقيقتها: الإقراض لِسُوطِ خطر الطريق، وذلك كأنْ يكتب المقترض للمُقترض كتاباً يدفعه إلى نائبه ببلد آخر ليعطيه ما أقرضه على سبيل القرض لا على سبيل الوديعة، الصكوك مفردها الصَّكُّ: وهو الكتاب الذي يُكتب فيه مال مُؤَجَّل أو نحوه، والصك: كتاب الإقرار بالبيع أو الرهن أو نحوها. عمارة، محمد: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، (القاهرة، 1993م)، ص286، 332.

58- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ج3، ص248-250.

59- ابن خليل، عبدالباسط: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، (باريس، 1936م)، ص37.

60- منصور، محمد صالح: العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف بالأندلس (يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف)، منشورات جامعة قاريونس، (بنغازي، 1995م)، ص27.

(****) قامت الدعوة الموحدية والدولة الموحدية على أكتاف قبائل مصمودة التي ينتمي لها بصلة الدم والقرابة الإمام المهدي محمد بن تومرت مؤسس الحركة الموحدية والدولة الموحدية الذي ينتسب بالتحديد إلى قبيلة هرغة المصمودية، وهذه القبائل المصمودية هي: (هرغة، هنتاتة، هيلانة)، وهم كثيراً ما يتم تصنيفهم حسب درجات سابقتهم في مناصرة الدعوة، وداخل كل قبيلة يتم تصنيف الأفراد حسب أسبقيتهم في الالتفاف حول المهدي حسب وظائفهم ومهامهم داخل هيكلة الحركة الموحدية، والدولة الموحدية، وجاء ترتيب أفراد قبائل المصامدة حسب تصنيف حركة الموحدين كالآتي: طبقات أشياخ الموحدين – أهل الدار – العشرة – الخمسون – السبعون – ثم طبقة قبائل الموحدين، وعندما أعلنت الدولة الحفصيَّة الاستقلال عن دولة الموحدين في المغرب الأقصى الذين نبذوا أفكار وعقائد حركة ابن تومرت الموحدية ومذهبها الظاهري، وكانت تهدف دولة الحفصيَّين من وراء استقلالها الحفاظ على دعوة الموحدين والمذهب الظاهري، فجعلت لقبائل الموحدين الدور السياسي والفكري والاجتماعي الأول من خلال طبقات أشياخ الموحدين وقبائل الموحدين. زمبارو، أ. فون: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي – ترجمة: سيدة إسماعيل كاشف

وآخرون، مطبعة جامعة فؤاد الأول، (القاهرة، 1951م)، ص28، 38، 48؛ كذلك: هويكنز، ج.ف.: النظم الإسلامية في المغرب – تعريب: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب (تونس/طرابلس، 1980م)، ص152، 161؛ كذلك: ابن القطان: نظم الجمان – تحقيق: محمد علي مكي، المطبعة المهدية، (تطوان، د.ت)، ص28.

61- ابن القنفذ القسطنطيني، أبو العباس أحمد بن الحسن بن علي بن الخطيب: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيَّة – تحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبدالمجيد التركي، (تونس، 1968م)، ص62.

62- ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ج2، ص14.

63- ابن القنفذ: الفارسية، مصدر سابق، طبعة 1968م، ص62.

64- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

65- ابن خليل: الروض الباسم، مصدر سابق، ص37؛ كذلك الوزان: وصف إفريقيا، مصدر سابق، ج2، ص91.

66- ابن القنفذ: الفارسية، مصدر سابق، طبعة تونس 1968م، ص194.

67- محمد صالح: العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف، مصدر سابق، ص28.

68- ابن الشباط، محمد بن علي التوزري: صلة السمط وسمة المرط، مخطوطة رقم 5605، 5606، المكتبة الوطنية، تونس، ج3، ص187.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

1- ابن الخطيب، أبو عبدالله لسان الدين محمد بن عبدالله: شرح رقم الحلل في نظم الدول – تحقيق: عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة (دمشق، 1990م).

2- ابن الشباط، محمد بن علي التوزري: صلة السمط وسمة المرط، مخطوطة رقم 5605، 5606، المكتبة الوطنية، تونس، ج3.

3- ابن الشباط، محمد بن علي التوزري: صلة السمط وسمة المرط، مخطوطة رقم 5605، 5606، المكتبة الوطنية، تونس، ج3.

4- ابن القطان: نظم الجمان – تحقيق: محمد علي مكي، المطبعة المهدية، (تطوان، د.ت).

5- ابن القنفذ القسطنطيني، أبو العباس أحمد بن الحسن بن علي بن الخطيب: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيَّة – تحقيق: محمد الشاذلي النيفر وعبدالمجيد التركي، (تونس، 1968م).

6- ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي التونسي: المقدمة، ج2، (بيروت، 1970م).

7- ابن مريم، أبو عبد الله محمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان – مراجعة: محمد بن أبي شنب، (الجزائر، 1908م).

8- الرصاع، أبو عبدالله محمد الأنصاري: فهرست الرصاع – تحقيق وتعليق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، (تونس، 1967م).

9- السراج، محمد بن محمد الأندلسي الوزير: الحلل السندسية في الأخبار التونسية – تحقيق: محمد الحبيب الهيلة ج1، (تونس، 1970م).

10- العمري، شهاب الدين يحيى بن فضل الله: وصف إفريقية والأندلس في أواسط القرن الثامن للهجرة – نشر وتعليق: حسن حسني عبدالوهاب، مطبعة النهضة، (تونس، د.ت).

11- الغبريني، أبو العباس أحمد: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية – تحقيق: رابح بونار، (الجزائر، 1981م).

12- الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المعرب وجامعة المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب – إخراج تحت إشراف: ج1، محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1981م).

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

1- ابن خليل، عبدالباسط: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، (باريس، 1936م).

2- ابن ناجي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى: معالم الإيمان، (تونس، 1920م)، ج4.

3- ألفراد، بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي – ترجمة: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1981م).

4- برانشفيك، روبار: تاريخ إفريقية في العهد الحفصيَّ من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي – ترجمة: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1988م)، ج1.

5- البرزلي، أبو الفضل أبو القاسم: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا المفتيين والحكام، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 2002م)، ج2.

6- البرغوثي، عبداللطيف محمود: تاريخ ليبيا الإسلامي (من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني)، منشورات الجامعة الليبية ودار صادر (بيروت، 1972م).

7- الدولاتلي: مدينة تونس في العهد الحفصيَّ، د.ن، (تونس، 1981م).

8- الرجيبي، نزيهة أبو القاسم: الهجرات الأندلسية وأثرها على منطقتي تونس وليبيا في الفترة من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن التاسع عشر الميلادي، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، (طرابلس، 2009م).

9- روسي، إتوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م – ترجمة: خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب (د.م، 1991م).

10- زمبارو، أ. فون: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي – ترجمة: سيدة إسماعيل كاشف وآخرون، مطبعة جامعة فؤاد الأول، (القاهرة، 1951م).

11- سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، د.ت).

12- سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، (الإسكندرية، د.ت).

13- الطالبي، محمد: دراسات في تاريخ إفريقية، منشورات الجامعة التونسية، (تونس، 1982م).

14- عبدالحميد، سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، منشأة المعارف العامة (الإسكندرية، 1992م)، ج1.

15- عمارة، محمد: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، (القاهرة، 1993م).
16- قرضاب، أسماء علي عمر أحمد: التجارة بإفريقية في العهد الأغلبي (184-296هـ/800-909م)، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، (طرابلس، 2010م).
17- كحالة، عمر رضا: دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية (الملاحة – الفتوة، الفروسية – التربية والتعليم – التجارة – البريد – المواصلات البحرية والنهرية)، المطبعة التعاونية، (دمشق، 1973م).
18- منصور، محمد صالح: العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف بالأندلس (يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف)، منشورات جامعة قاريونس، (بنغازي، 1995م).
19- مؤنس، حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار مطابع المستقبل (القاهرة، 1980م).
20- هويكنز، ج. ف.: النظم الإسلامية في المغرب – تعريب: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب (تونس/طرابلس، 1980م).
21- الوزان، الحسن ليون الإفريقي: وصف إفريقية – ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1983م)، ج2.

ثالثاً: الدوريات:

1- أبو يحيى، الشاذلي: الرحلة المغربية، مجلة الحوليات التونسية، العدد الرابع (تونس، 1967م).
2- شعيرة، محمد عبدالهادي: ليبيا الاسم ومدلولاته التاريخية، مجلة كلية الآداب والتربية، منشورات جامعة بنغازي (بنغازي، 1958م).
3- القابسي، نجاح: المعاهد والمؤسسات التعليمية في المغرب العربي، مجلة كلية التربية، العدد (14)، (بنغازي، 1980م).

رابعاً: المراجع الأجنبية:

1- Brunschvig, R. *Quelques remarques historiques sur les médersas de Tunis*, R.T., 6, 1931.
2- Sayous, André-E. *Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII^e siècle jusqu'à la fin du XVI^e*, Paris, 1929.
3- X. De Planhol, *Les fondements géographiques de l'Islam*.

4− Du Fourcq, *Commerce du Maghreb médiéval*, Actes du Ier Congrès d'Histoire et de Civilisation du Maghreb, t. I.

5- X. De Planhol, *Les fondements géographiques de l'Islam*, Flammarion, Paris, 1968.

6− G. Marçais, *Urbanisme musulman*, Ve Congrès de la Fédération des Sociétés des Sciences de l'Afrique du Nord, Alger, 1940.